(٢٣)

لا علاقة بين العلم والإلحاد

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩١هـ) مايو (١٩٧١م)

في أرجاء الأمة الإسلامية ناس أشباه متعلمين يعلنون إلحادهم دون حياء، ويزعمون أنهم ثوار على الرجعية، عشاق للمعرفة، ضائقون بالأفكار القديمة، معتنقون للأفكار الحديثة!

وكثيرا ما لقيت في طريقي صورا من هؤلاء الناس، فأتفرس في مسالكهم، وأتأمل في أقوالهم وأحوالهم، ثم أذكر كلمة العقاد رحمه الله: «هناك مقلدون في كراهية التقليد!»

إن هذا النفر المعوج من الشباب ضحل الثقافة، قصير الباع في ميادين العلم، ولكنه يريد الظهور في ثياب العلماء فيثرثر بكلمات ضخمة يحسبها تنظمه في سلكهم وهيهات! إنهم لم يكفروا بعد دراسات عميقة في علوم الكون والحياة، فإن أنصبتهم من هذه العلوم فوق الصفر بقليل، ولكنهم كفروا لعلل نفسية أو اجتماعية او اقتصادية نمت في نفوسهم وأصابتهم بهذا الدوار أو هذا السعار، فقالوا ما قالوا دون وعي حق!

أما حديث العلم وتقدمه، والكون وكشوفه، فهو تعلة خادعة ينكرها العلم والعلماء.

وأول ما نلحظه على أولئك الناس نقلهم لكلمات أوحت بها بيئات أخرى، وترديدها في بلادنا دون أي حساب لاختلاف الزمان والمكان والباعث والنتيجة!

لقد كان الفيلسوف الألماني نتشه ملحدا، وكان كفره بالله شديدا، ومما يؤثر عنه قوله في الهجوم على الدين «عندما نستمع في صباح الأحد إلى

دقات الأجراس القديمة نتساءل: أهذا ممكن؟ إن هذا كله من أجل يهودي صلب منذ ألفي عام كان يقول إنه ابن الله! وهو زعم يفتقر إلى برهان».

لا جدال أن العقيدة المسيحية- هكذا يقول نتشه - هي بالنسبة إلى عصرنا أثر قديم نابع من الماضي السحيق، وربما كان إيماننا بها في الوقت الذي نحرص فيه على الإتيان ببراهين دقيقة لكل رأي نعتنقه، شيئا غير مفهوم، فلنتصور إلها أنجب أطفالا من زوجة فانية، وخطايا ترجع إلى الله ثم يحاسب هو نفسه عليها خوفا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه! لكم يبدو كل ذلك مخيفا، وكأنه شبح قد بعث من الماضي السحيق! أيصدق أحد أن شيئا من ذلك لا يزال يصدق؟

وهذا الطراز من الإلحاد هو الذي يحمل جرثومته بعض الناس، يحسبون أنهم يفتنوننا به نحن المسلمين عن ديننا ويصرفوننا عن رسالتنا.

وهو طراز يختلط فيه التقليد الأعمى بالنقص المركب، أو حب الظهور بالحقد على المجتمع.. أما الزعم بأن العلم المادي ضد الدين، وأن بحوثه المؤكدة وكشوفه الرائعة تنتهي بإنكار الألوهية فهذا هو الكذب الصراح!

بل إن أساطين العلم والفلسفة تشابهت مقالاتهم في إثبات الوجود الأعلى، وتكاد في وصفها لله تنتهي إلى ما انتهى إليه القرآن الكريم من توحيد وتمجيد.

نحن لا ننكر أن خصاما شديدا قد وقع بين العلم والدين في أوروبا حيث كان القول بكروية الأرض كفرا، والقول بدورانها حول الشمس إلحادا!

ولا ريب أن تلك الجفوة المفتعلة بين حقيقة الدين وطبيعة العلم تركت آثارا سيئة هنا وهناك، بيد أن الاعتماد على هذا في التجهم للايمان الحق لا يسوغ، فان تجريد الدين من الشوائب التي لحقت به، والتزام العلم للنهج السوي في البحث عن الحقيقة قد انتهى بصلح شريف يذكرنا بقوله جل

شأنه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

كانت المادية بدعة القرن الماضي، وكان الزعم السائد أنه لا وجود الا للمادة وأن ما وراء المادة عدم محض، وان المادة لا تفنى ولا تستحدث، وأن الدين بعد هذا كله أمسى لا مكان له،!

ثم مضت الحقائق العلمية تكشف عن وجهها فاذا مقررات الماضي تنسف من أصولها، يقول الدكتور أبوالوفا التفتازاني: كان العلم يتصور الأمور تصورا ماديا بحتا إلى أن جاء العلم الشهير البرت انشتين فغير ببحوثه الطبيعية النظر إلى المادة تغييرا حاسما، وقد صور الفيلسوف الانكليزي «رسل» ذلك قائلا: درسنا العالم الطبيعي فوجدنا المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها، اذا حللها العلماء إلى مجموعات ذرية كل مجموعة منها تنحل إلى ذرات، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل إلى كهارب موجبة وأخرى سالبة، ثم مضى العلماء في التحليل، فإذا هذه الكهارب نفسها تتحول إلى اشعاعات! وختم «رسل» كلامه بهذه العبارة «ليس في علم الطبيعة ما يبرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي».

ونحن نقول: انتساب ذلك الكون الضخم إلى أصول من الأشعة شيء مثير حقا! ترى ما الذي كثف النور، وجمد حركته ووزعه على ألوف الأشكال التي نراها؟

انك لن تعدم سفيها يقول لك: تم ذلك من تلقاء نفسه!

وهذا القائل مستعد أن يقول لك أيضا: إن الصحف في عواصم العالم تصدر عن دورها مليئة بالأخبار والتعليقات والصور، متسلقة الحروف والأرقام تلقائيا من غير ما إشراف ولا إعداد ولا تبويب ولا ترتيب!

لعمري إن ذلك أدنى إلى التصور من خلق الموت والحياة في هذا العالم الفخم الضخم تلقائيا كما يأفك الأفاكون!

لكن أي عاقل يحترم نفسه ويقدر علمه يأبى هذا المنزلق، يقول الدكتور التفتازاني:

ولعل هذا ما جعل العلامة انشتين يؤثر الايمان بالله ويرفض الشبهات التي تختلق ضده، وقد دار حوار بينه وبين صحفي أمريكي يدعى «فيرك» في هذا الموضوع قال فيه الرجل العالم بحسم: انني لست ملحدا! ولا أدري: هل يصح القول بأني من أنصار وحدة الوجود؟[1] ان المسألة أوسع نطاقا من أن تحيط بها عقولنا المحدودة..!

وعاد الصحفي إلى سؤاله بطريقة أخرى - يريد بها هز الايمان الذي لاذ به هذا العالم - فقال: ان الرجل الذي يكتشف ان الزمان والمكان منحنيات، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة، جدير به الا يهوله الوقوف في وجه غير المحدود!

فيرد «أنشتين»: اسمح لي ان أضرب لك مثلا، ان العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الاحاطة بالكون - فكيف بخالقه - نحن أشبه ما نكون بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف، فغطت جدرانها، ثم هي مؤلفة بشتى اللغات.

إن هذا الطفل يعلم أن شخصا ما كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف بالضبط من هو، ولا كيف كانت كتابته لها، ثم هو لا يفهم اللغات التي كتبت بها!

---

(١) ليس هذا العالم ممن يعتنقون مذهب الوحدة على النحو الذي يعرفه الهنود، أو النحو الذي تسرب من الهندوكية إلى بعض الديانات الأخرى، ولكنه يريد أن يقول: إنه يرى الله في كل شيء، يلمح صفاته العظمى في مجالي الكون كلها ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وعذر الرجل أنه لا يعرف الاسلام فيعبر التعبير المأثور.

وقد يلاحظ الطفل أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب، ونظاما غامضا يشمل صفوفها وأوضاعها، نظاما يحس أثره ولا يدري كنهه.

إن ذلك القصور هو موقف العقل الانساني مهما بلغ من العظمة والتثقيف!

وعاد الصحفي الأمريكي يسأل: أليس في وسع أحد حتى أصحاب العقول العظيمة أن يحل هذا اللغز؟

فأجاب انشتين مرة أخرى يعلل لماذا هو مؤمن، ولماذا يعجز عن معرفة كنه الله فقال: نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة، ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الإبهام، فنؤمن بالله، ولكن عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم...».

لو كانت المواد التي يتكون منها هذا العالم الضخم تتراكم بعضها فوق بعض دون تبصر أو حكمة لدلت كثرتها وحدها على غنى واسع وثراء عريض..! فإن الأبعاد الآلية لهذا الكون مذهلة!

لكن الأمر أبعد ما يكون عن الجزاف والفوضى.

والبناء العقلي المتغلغل في الكون من الذرة إلى المجرة يجعلنا نكوِّن عن هذا العالم الدقيق صورة أخرى.

ولن نأتي بهذه الصورة من عندنا أنفسنا، بل من أقوال الفلكي الإنجليزي «سير جيمس جنز» الذي ينطق بهذه العبارة المثيرة «لقد بدأ الكون يلوح أكثر شبها بفكر عظيم منه بآلة عظيمة...».

ان الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها، بل في الطريقة التي تدور بها وتؤدي وظيفتها.

ان الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها، بل في الطريقة التي حبكت الموازنة والضبط والتقدير. ومن ثم يتجه الإعجاب إلى العقل الواضع، الحاسب قبل أن يتجه إلى أثره المحدود.

ولننظر إلى عقلنا الإنساني بين ما ننظر إليه من صنوف المخلوقات، ماذا نرى؟ إنه كائن ذكي قدير يبدو ويخفى في أدمغة الألوف المؤلفة من سكان الأرض الأحياء والراحلين، الذين وجدوا والذين سيوجدون، من أين تولد هذا العقل؟ من الماء والطين كأعشاب الحدائق.. هذا فرض مضحك ولا ريب، إنه نفحة من الخالق الأعلى وحده.

يقول «سير جيمس جنز».. يجب أن ننكر المقدمات التي يفترضها بعض النقاد من غير علم، فالكون لا يبيح لنا أن نصوره تصويرا ماديا، وسبب ذلك في رأيي أنه قد أصبح من المدركات الفكرية العميقة، أننا واجدون في الكون دلائل على قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك، ليس هو العاطفة أو الأخلاق، أو تقدير الجمال، ولكنه الرغبة في التفكير بطريقة، خير ما نصفها به انها رياضية (!) لأننا لا نجد الآن أصلح من هذا التعبير».

والعلامة الانجليزي معذور في وصف الإبداع الإلهي بهذا الأسلوب.

لقد راعه، وهو فلكي راسخ، أن يجد في نظام الشروق والغروب والدوران والانطلاق دقة تسجد علوم الرياضة في محرابها، فقال: «إن التفكير المشرف عليها تفكير علمي رياضي! بل إنه اعتبر العقل الانساني أثرا للعقل الكلي الذي توجد فيه، على شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيرا إلى شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيرا إلى أن الآراء متفقة، إلى حد كبير في ميدان العلم الطبيعي إلى أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية» أي غير مادية، أي إلى الله الكبير المتعال، على هذا النحو يفكر علماء الكون الكبار، ويحكم أئمة العلم الحديث ورواده الأكابر ولذلك شعرت بسخرية أي سخرية عندما قرأت لصحافي كبير في بلادنا هذه الكلمة الغبية السمجة. «إن التقدم العلمي يوشك أن يجعل أخطر الوثائق العقائدية نوعا من البرديات القديمة التي حال لونها،

وبليت صفحاتها، وعدت عليها عوامل الزمن بالتعرية والتآكل، وأصبح من الضروري للابقاء على أثرها أن يخصص لها مكان في متاحف التاريخ».

قلت ما أوسع الفرق بين منطق العلماء ومنطق الجهلاء في تناول القضايا وارسال الأحكام. هل يمحى الإيمان كله بهذه السهولة؟

ولقد شعرت كذلك بسخرية، أي سخرية عندما رأيت كتابا بعنوان «العالم ليس عقلا» ألفه شخص ولد في نجد، وقضى أغلب عمره على قهوات القاهرة وبيروت، وتلقى أكثر علمه من الأوراق الشاحبة التي يسطرها بعض المعلولين والمعقدين!

هذا المسخ الذي لم يعمل يوما في مرصد ولا مختبر للكيمياء أو الفيزياء، ينكر الألوهية، ويسفه النتائج التي وصل إليها أمثال انشتين من قادة المعارف الكونية، طبعا لأنهم رجعيون وهو تقدمي، ولأنهم قاصرون وهو نابغة..!

ولست أتهم كل ملحد بأنه صورة للملحدين الصغار، فإن هناك بعض العلماء والفلاسفة - وإن كانوا قلة - تنكروا للإيمان وقواعده وغاياته، بيد أن المتتبع لأقوال هؤلاء يجزم بأن انتسابها إلى العلم تزوير جريء، فهم يخمنون ويفترضون ثم يبنون قصورا على رمال!

وقد قرأت لبعضهم كلاما عن بداية الخليقة يثير الضحك، فهم يزعمون أن العناصر في الأزل السحيق تفاعلت اعتباطا، وسنحت فرصة لن تتكرر بعد أبدا (!) فتكونت جرثومة الحياة! ثم أخذت تنمو وتتنوع على النحو الذي نرى.. وهذا كلام لا يصدر عن عقل محترم، ولا يصفه بأنه علم الا مخبول! وصدق الله العظيم ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ (**الكهف: ٥١**).

أذكر أني - وأنا أناقش بعض الأدلة- سألت نفسي هذا السؤال: هل أنا كائن قديم أم مخلوق جديد؟ فكان الجواب القاطع: لقد ولدت سنة كذا،

فأنا حادث بلا ريب! ولكن شبهة ثارت تقول: انك تخلقت من مادة الذين هلكوا قبلك، وعندما تموت فستكون أجساد أخرى منك ومن غيرك! فقلت إذا أسلمت بهذا في الأجساد فلن أسلم به في روحي أنا.. إن هذه «الأنا» المعنوية هي حقيقتي الكبرى، وأنا مستيقن بأني كائن جديد مستقل، وجدت بعد عدم محض، فمن أبرزني من لا شيء؟

انني لست معتوها حتى أشك في بداية وجودي وشعوري، فمن رب هذه المنحة الخطيرة؟ فتلوت قوله تعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا[1] ۝ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ (**الإنسان**: ١، ٢).

وعدت إلى قصة الجسد الذي أحمله في حياتي وأنضوه بعد مماتي، هل هو قديم المادة حقا؟ فسألت العلم: كيف يوجد؟ وهل يمكن أن يتمثل بشرا سويا هكذا عشواء؟ فقال العلم: إن الوليد يتخلق أول أمره من التقاء الحيوان المنوي بالبويضة! فما الحيوان المنوي؟ كائن دقيق توجد في الدفقة الواحدة منه قرابة مائة مليون حيوان، كل واحد من هذه الآلوف المؤلفة يمثل الخصائص المعنوية والمادية للإنسان من الطول أو القصر، والسواد أو البياض، والذكاء أو الغباء. والحدة أو الهدوء... إلخ، ويبدأ التكون الانساني بوصول واحد - لا غير - من هذه الألوف الكثيفة إلى البويضة وتفنى البقية، قلت: فلأقف عند نقطة الابتداء هذه لأسأل: من الذي صنع هذه الحيوانات السابحة في سائلها، الحاملة لخصائص السلالة الآدمية من أجيال خلت؟ قالوا غدة في الجسم! قلت: غدة أوتيت الذكاء والوعي والاقتدار على خلق مائة مليون كائن من طراز واحد! مجموعة دراهم من اللحم تتصرف من تلقاء نفسها في صنع الذكاء أو الغباء، والحلم أو الغضب؟ ما يصدق ذلك إلا

---

(١) الاستفهام تقريري كما يقول العلماء، يعني قد أتى على كل امرئ وقت كان فيه عدما محضا، وهو الوقت السابق لميلادنا، فما كنا شيئا قط قبله، فمن استحيانا من ذلك الفناء؟

مغيب العقل! وتلوت قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨-٥٩) إننا أمام أدوات القدرة العليا، وهي تبرز مشيئة الخالق الجليل، وكأنها تقول لنا: إن الله للعالم ليس فيه شائبة غرابة! أليس يخلق في كل لحظة تمر ألوفا من الناس، وألوفا من الدواب وصنوفا من النبات، إن إبداع الخليقة ليس فلتة وقعت وانتهت، وأمست في ذمة التاريخ بحيث يستطيع المكابرون أن يجادلوا فيها.. لا.. إن الإيجاد من الصفر يقع أمام أعيننا كل يوم في عالم الأحياء، فلم هذا المراء؟

إن بديع السموات والأرض لا يزال يخلق في كل وقت وفي كل شبر صنوفا من الأحياء الدقيقة والجليلة، لا حصر لها، فكيف ينكر ما كان من خلق أول أو ما سوف يكون من بعث وجزاء؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (**العنكبوت**: ١٩، ٢٠).

ولنفرض، جدلا، أن بعض الناس يرى أن الفلك الدوار يجري في الفضاء، دون ضابط ولا رابط، وأن الوليد الخارج من ظلمات الرحم لامع العين، مورد الخد، مفتر الثغر، قد صنعه على هذا التقويم الحسن شيء ما في بطن الأم! لنفرض أن بعض الناس ركب رأسه وقال هذا الكلام.. فما الذي يجعل هذا الزعم السخيف يوصف بأنه علم وتقدمية على حين يوصف منطق الايمان بأنه جمود ورجعية؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

لقد آن الأوان لتهتك الأستار عن أدعياء التقدم الذين يمثلون في الواقع ارتكاسا إنسانيا إلى جاهلية عديمة الشرف والخير، مبتوتة الصلة بالعقل وذكائه والعلم وكشوفه.